التعليم الابتدائى

مادته ومناهجه

● **تطور مهنة التعليم فى الإسلام :**

فى كل العصور ، وبين كل الأمم ، كان سوء الحظ والاحتقار زميلا لا ينفصل لمعلم المدرسة الغلبان ، وفى بعض البلدان مثل روما كانوا يحتقرون هذه المهنة لأن القائمين عليها من الأجانب الفقراء والمعدمين ، أو من العبيد ، وفى بلاد أخرى كان حظها من الاحتقار حظ كل المهن المأجورة ، ولم تحظ بلون من التقدير إلا فى الفترات التى أصبح فيها التعليم دينيا ، وشاع بين الطبقات العليا أن يتصل أفرادها ضرورة بالمذاهب الجميلة .

أما بين الشعوب الإسلامية فقد بدأ التعليم من أعلى ، بين أنبل الشخصيات ، ومضى هابطا مع الزمن إلى أن انتهى به المطاف بين يدى أدنى طبقات المجتمع ، وهذا الموقف له ما يفسره ، يقول ابن خلدون : « ... وأن التعليم صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك ، ولم يكن العلم بالجملة صناعة ، إنما كان نقلا لما سمع من الشارع ، وتعليما لما جهل من الدين على جهة البلاغ ، فكان **أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنه نبيه ﷺ** ، على معنى التعليم الخبرى لا على وجه التعليم الصناعى ، إذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم ، وبه هداياتهم ، والإسلام دينهم ، قاتلوا عليه وقتلوا ، واختصوا به من بين الأمم وشرفوا ، فيحرصون على تبليغ ذلك وتفهيمه للأمة ، لا تصدهم عنه لائمة الكبر ، ولا يزعهم عاذل الأنفة ، ويشهد لذلك بعث النبى ﷺ كبار أصحابه مع وفود العرب ، يعلمونهم حدود الإسلام وما جاء به من شرائع الدين ، بعث فى ذلك من أصحابه العشرة فمن بعدهم .

« فما استقر الإسلام ، ووشجت عروق الملة حتى تناولها الأمم البعيدة من أيدى أهلها ، واستحالت بمرور الأيام أحوالها ، وكثر استنباط الأحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها ، فاحتاج ذلك لقانون يحفظه من الخطأ ، **وصار العلم ملكة يحتاج إلى التعلم ، فأصبح من جملة الصنائع والحرف** ، كما يأتى ذكره فى فصل العلم والتعليم ، واشتغل أهل العصبية بالملك والسلطان ، فدفع لعلم من علم به من سواهم ، وأصبح

حركة للمعاش ، وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدى للتعليم ، واختص انتحاله بالمستضعفين ، وصار منتحله مختصرا عن أهل العصبية والملك »[1] .

إن أفكار هذا المؤرخ الفطن الحكيم حول ما كان من شأن التعليم فى بداية الإسلام يمكن تطبيقها على إسبانيا الإسلامية مع شيء من التحديد .

لقد كان قادة الجيش الإسلامى الذى فتح إسبانيا ، وكثير من جنده ، أناسا حظهم من الثقافة محدود ، حتى فيما يتصل بذات دينهم الذين يؤمنون به ، واهتموا بتأمين السلطة السياسية عن طريق القوة ، وما كادوا يلتفتون إلى مهمة التعليم . أما الذى التفت إليها حقا ، وأخذ أمرها على عاتقه ، فهم أولئك الأتقياء الذين كان داخلهم يفيض حماسة للتبشير بالدين الإسلامى ، على أمل الفوز برضا الله فى الآخرة ، وهم الذين نشروه عبر شبه الجزيرة ، وحفظوا أهلها القرآن الكريم . وفى البدء ، كما هو طبيعى ، كان العرض أكثر من الطلب ، فالعلماء يعتبرون أنفسهم سعداء حين يجدون طلابا يتعلمون على أيديهم ، ومن ثم بدأ التعليم مجانيا كله ، ولكن ما إن زاد عدد الذين اعتنقوا الإسلام ، وبدأوا يشعرون برغبة أقوى فى أن يتعلموا مبادئ الدين الجديد ، حتى رأوا ضرورة تشجيع مهنة التعليم بالهدايا والهبات ، وبدأت هذه العادة تنتشر تدريجيا حتى تأصلت ، وامتدت أكثر فأكثر ، ثم أصبح الدفع للمدرس ضروريا ، وساعتها بدأت مهمة معلم المدرسة تصبح فعلا مهنة مأجورة .

من الصعب تحديد متى بدأ هذا التغيير فى إسبانيا لأنه لم يحدث ولا يمكن أن يحدث ، بغتة ودفعة واحدة ، ومنذ البدء كان هناك من يقبض ، وحتى النهاية كان هناك من يعلم تقوى ، أو تكفيرا ، أو حبا فى التعليم . ولكن إنشاء مدارس من أجل التلاميذ الفقراء كالذى قام به الحكم المستنصر إشارة واضحة ، فيما أرى ، على أن الأغنياء كانوا يدفعون نفقات تعليم أبنائهم ، وعلى أن حماسة الفقهاء الدينية ، وقد ذهبت المناصب الرسمية المريحة والمربحة بحدتها ، لم تعد كافية لكى تحمل التعليم إلى الطبقات الاجتماعية الفقيرة ، التى لا تستطيع أن تتحمل نفقات التعليم الابتدائى .

● **مواد التعليم الابتدائى :**

كان التعليم الابتدائى حينئذ فى كل البلاد الإسلامية ، يقوم على تعليم القرآن الكريم قراءة وكتابة ، ويجب أن يجيء هذا فى المقدمة ، لاعتباره الأول فى الأهمية ، ويقولون إنهم يحققون عدة أهداف ، لأن « تعليم الولدان القرآن شعار الدين أخذ به أهل الملة ،

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ترجمة دى سلان الفرنسية ، جـ ١ ص ٦٠ وما بعدها ، ص ٣٠ من طبعة المكتبة التجارية ، القاهرة .

ودرجوا عليه ، فى جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن ، وبعض متون الحديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات ، وسبب ذلك أن التعليم فى الصغر أشد رسوخا ، وهو أصل لما بعده ، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للمكان ، على حسب الأساس وأساليبه بكون حال ما ينبنى عليه »[1] .

وبهذا يتعلم الصبى نطق العربية فى دقة ، لأن القراءات القرآنية ، وإن اختلفت صورها ، هى أفضل ما ينطق ويقرأ فى كل العالم الإسلامى ، ويمد الذاكرة بجمل عربية جيدة الفصاحة ، تهيىء التلميذ لدراسة النحو التى ستجىء فيما بعد ، فيتخذ من آيات القرآن المثل والشاهد[2] .

ولم يكن المعلمون الإسبان يقتصرون على تدريس القرآن فحسب ، وإنما « يخلطون فى تعليمهم للولدان رواية الشعر فى الغالب ، والترسل ، وأخذهم بقوانين العربية وحفظها ، وتجويد الخط والكتاب ، ولا تختص عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها ، إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة ، وقد شدا بعض الشىء فى العربية والشعر ، والبصر بهما ، وبرز فى الخط والكتاب ، وتعلق بأذيال العلم على الجملة ، لو كان فيها سند لتعليم العلوم ، لكنهم ينقطعون عن ذلك لانقطاع سند التعليم فى آفاقهم ، ولا يحصل بأيديهم الآن ما حصل من ذلك التعليم الأول »[3] . م

أى أن التعليم الابتدائى فى إسبانيا الإسلامية كان أكثر تنظيما من بقية العالم الإسلامى ، أفضل مما كان عليه فى المغرب مثلا حيث يقتصرون « على تعليم القرآن فقط ، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومشاكله ، واختلاف حملة القرآن فيه ، لا يخلطون ذلك بسواه فى شىء من مجالس تعليمهم ، لا من حديث ولا من فقه ، ولا من شعر ، ولا من كلام العرب ، إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه ، فيكون انقطاعه فى الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة ، وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ، ومن تبعهم من قرى البربر »[4] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ترجمة دى سلان ، جـ ٣ ، ص ٢٨٥ وما بعدها (القاهرة ص ٥٣٧) .

(٢) أرتين باشا ، التعليم فى مصر (باللغة الفرنسية) ، باريس ١٨٨٩ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ، نفس الجزء والصفحة . .

(٤) المصدر السابق .

كان المعلمون فى إسبانيا الإسلامية إذن يعنون بإعداد التلاميذ للدراسات التالية ، وكانت لديهم الجرأة لكى يدخلوا شيئا من التجويد ، وحتى أن ينتقدوا ، فى مواراة ، عادة البدء بتدريس الفقه ، وقد اقترح القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب رحلته ، قانون التأويل « طريقة غريبة فى وجه التعليم ، وأعاد فى ذلك وأبدأ ، وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم ، كما هو مذهب أهل الأندلس ، قال : « لأن الشعر ديوان العرب ، ويدعو على تقديمه وتقديم العربية فى التعليم ضرورة فساد اللغة . ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ، ثم ينتقل إلى درس القرآن ، فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة » .

ويقول فى مكان آخر : « ويا غفلة أهل بلادنا فى أن يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أول أمره ، يقرأ ما لا يفهم ، وينصب فى أمر غيره أهم عليه » . ويضيف : « ثم ينظر فى أصول الدين ، ثم أصول الفقه ، ثم الجدل ، ثم الحديث وعلومه . ونهى مع ذلك أن يخلط فى التعليم علمان ، إلاّ أن يكون المتعلم قابلا لذلك بجودة الفهم والنشاط » .

وقد نقل ابن خلدون هذه الفقرة وعلق عليها : « وهو لعمرى مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه ، وهى أملك بالأحوال . ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن إيثارا للتبرك والثواب ، وخشية ما يعرض للولد فى جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن ، لأنه ما دام فى الحجر منقاد للحكم ، فإذا تجاوز البلوغ ، وانحل من ربقة القهر ، فربما عصفت به رياح الشبيبة فألقته بساحل البطالة ، فيغتنمون فى زمان الحجر ، وربقة الحكم ، تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوا منه . ولو حصل التيقن باستمراره فى طلب العلم وقبوله التعليم ، لكان هذا المذهب الذى ذكره القاضى أولى مما أخذ به أهل المغرب والمشرق »[1] .

● **طريقة تعليم الخط :**

فيما يتصل بمنهج **تدريس الخط** ظلت إسبانيا الإسلامية متأخرة قليلا عن بلاد المشرق الإسلامى ، وكان تدريس الخط فى هذه يمثل مادة مستقلة ، بمعزل عن تعليم الأبجدية فى البدء ، وكان هناك مدرسون مختصون به ، يعلمون التلاميذ تجويده ، وبينهم من

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، جـ ٢ ص ٢٨٩ ، الترجمة الفرنسية (ص ٥٣٩ طبعة القاهرة) . ولو أن بعض هذه الملاحظات لا تشير إلى التعليم الابتدائى فحسب ، وإنما يمكن أن تشمل التعليم العالى أيضا ، رأيت من الخير ألا أتجاوز ما يوحى به مضمون الملاحظة .

وقف المؤلف بتعليق ابن خلدون على رأى ابن العربى عند قوله : « بالأحوال » ، وأسقط تبريراته للبدء بتحفيظ القرآن ، ورأيت أن آتى بها كلها .

يذهب إلى المدرسة ليتعلم الخط بخاصة ، فيتعلمون مبادئه ، وقواعد رسم كل حرف مستقلا ويتدربون عليه بكتابة النصوص من نماذج أمامهم ، ومع تقسيم العمل على هذا النحو أمكن تكوين خطاطين ممتازين لأن المدرسين والطلاب فى هذه المدارس لم يكن لديهم ما يشغلهم غير الخط[1] .

وكانت المدارس الابتدائية فى إسبانيا الإسلامية تعلم التلاميذ منذ البدء كيف يكتبون ويقرأون فى الوقت نفسه ، ولم يكونوا يتعلمون رسم الحروف مفردة ، طبقا لقواعد الرسم المعروفة ، وإنما يسيرون على الطريقة الجميلة ، ويتدرب التلاميذ على نسخ كلمات كاملة توضع أمامهم نموذجا[2] .

وهى طريقة تبدو بغيضة للوهلة الأولى ، وأنها أدت إلى نتائج غير طيبة فى طريقة تعليم الخط ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ، لأن التلاميذ على ما يقول ابن خلدون ، إذا أخذنا فى الاعتبار المدارس الإسبانية بخاصة ، كانوا يتدربون منذ البدء ، ويجيدون الخط فى جملهم ، على حين أن الذين يفكرون فى أن يخصوها بدرس مستقل فيما بعد ، يهملون كثيرا ويقون دون أن يتعلموا ، أى أن إسبانيا الإسلامية إذا لم تخرج خطاطين ممتازين ، فعامة تلاميذها يكتبون خطا جيدا ، وربما كان هذا سببا فى أن الخط الأندلسى احتفظ بطابعه القديم ، حتى أنهم يقلدونه فى شمال أفريقيا .

وكان التلاميذ يستخدمون ألواحا قوية من الخشب المصقول ، يكتبون فوقها بأقلامهم ، بعد أن يملوها[3] فى الحبر ، فإذا انتهى التدريب بلوها بالماء ومحوها ، ثم عادوا يكتبون عليها ثانية من جديد ، وكانت النصوص التى تستخدم فى الكتابة فى إسبانيا من القرآن الكريم[4] .

---

(١) استخدام أبيات بعض الشعراء له فائدة أخرى فى نظر بعض الأتقياء ، وهو أن الأطفال لا ينتهكون حرمة القرآن بأن يمسحوا كل لحظة ما خطوه ، على نحو ما يفعلون فى أفريقية وإسبانيا وكانت النصوص منسوخة .

(٢) ابن جبير ، ص ٢٧٤ – وابن خلدون ، المقدمة ، جـ ٢ ص ٣٩٢ .

(٣) مل بمعنى غمس ، وهو الفعل الذى كنا نستخدمه ونحن صغار فى الكتاب ، وفضلتها على غمس ، رغم أننى لم أجدها بهذا المعنى فى معاجمنا ، إلا على طريق التحوز ، بأن تكون بمعنى أدخل ، وشجعنى على استخدام « مل » ، أنها تقال وسط قبيلة عربية خالصة ، وسكنت أقصى الصعيد قادمة من المغرب فى أرجح الحالات .

(٤) أبو بكر الطرطوشى : سراج الملوك ، ص ٤١ ، طبعة بولاق ، والضبى ، ص ١٢٨ .

ويحفظ التلاميذ عادة النصوص الفقهية ، والرسائل الأدبية ، وقواعد النحو ، وهذه كلها تكون مادة الدراسة فى التعليم الإبتدائى .

● **عقود التعليم :**

وكان المدرس ، وبوسع أى إنسان أن يعمل فى هذه المهنة لو أراد ، يتصل بوالد الصبى أو المسئول عنه مباشرة ، للاتفاق على المادة المطلوب تعليمها ، وشكل التعليم ، والزمن المخصص لها ، وشروط دفع الأجر . أى أن العقد خاص تماما ، ويجرى بين الطرفين بكامل الحرية .

ويحرر العقد لمدة عام ، ابتداء من الشهر الذى يتم فيه ، وكان المقابل ، أجرا أو هدايا ، يقدم مالا فى جانب منه ، ويدفع مع كل شهر ، وجانب آخر يقدم عينا ، ويكون عادة « أروبتان » أو ثلاث من القمح ، ونصف أروبة[1] من الزيت ، وفى مقابل ذلك كان على المدرس أن يبذل كل جهده ومهارته فى تعليم الصبى .

وكان عادة متأصلة أن تقدم للمعلم الهدايا فى عيدى الأضحى والفطر ، وطبقا لما يقوله الفقهاء صراحة فى مؤلفاتهم هى ليست فرضا ، وإنما شىء اختيارى ، ومن ثم لا يمكن للمدرس أن يطالب به فقها أو قضاء إذا تخلف والد الصبى .

وفى أحايين أخرى بدل أن يكون العقد سنويا ، أو مشاهرة ، يتفق الطرفان على أجر محدد ، مقابل أن يتعهد المدرس ، مثلا ، بتعليم الصبى هذه المادة أو تلك . وفى هذه الحال يجب على المدرس أن يتأكد من إمكانيات الصبى الذهنية ، حتى لا يخدع فى الأجر ، وأن يضمن الآباء ألا يعتذر لهم المدرس فى النهاية بأن التلميذ كان بليدا ، أو غير مهيأ للتعليم . ولابد أن الخلافات فى مثل هذه الحالة كانت كثيرة ، لصعوبة تحديد مصطلح « تعليم الصبى » ، وحولها اختلفت آراء الفقهاء ، ثم انتهوا أخيرا إلى رأى معقول جدا ، وهو الرجوع فى مثل هذه الحالة إلى العرف والعادة الجارى العمل بهما فى القرية ، أو المدينة ، أو البلد .

---

(١) أروبة Arroba مقياس وزن مقداره ١١,٥ كيلوجرام .

وقد كان الاحتياط مستحيلا فيما يتصل بمجهود المدرس فى التعليم ، ولكن تكن له نفس الثقة التى تمنح للمدرسة ، ولكن الآباء ، على الأقل يريدون أن يتأكدوا أن المدرس لن يغيب عن عمله أياما طويلة ، وهكذا فرضت العادة نفسها ، فى غيبة نظام خاص يحدده ، فإذا غاب المدرس فى أيام ليست الجمعة ولا الأعياد ، وامتدت غيبته ، فقد جانبا مناسبا من الأجر الذى يقدم له ، والشيء نفسه يحدث أيضا ، إذا طالت غيبته مريضا[1] .

● **العقوبات** :

وبما أن الأشياء العادية فى الحياة تظل عادة دون أن تأخذ طريقها إلى التاريخ ، فمن الصعب تحديد مدى الشدة المستخدمة فى الأزمنة المختلفة فى إسبانيا الإسلامية ، ولكن من المعتقد أنها لم تبلغ الدرجة القصوى على نحو ما كان عليه الحال فى أفريقيا ، حيث كانوا يستخدمون « الفلكة » ، وهى أداة تعذيب شديدة ، تشد بها ساقى الصبى لتكونا معدتين للضرب[2] . ويرى **ابن خلدون** أن من أسباب جبن سكان المدن وضعفهم وسائل الضغط فى المدرسة ، وبخاصة إذا كانت العقوبات شديدة[3] .

واستنتج الفقهاء من السنة « أنه لا ينبغى لمؤدب الصبيان أن يزيد فى ضربهم إذا احتاجوا على ثلاثة أسواط شيئا . ولكن يبدو أن المدرسين كانوا يستخدمون « الزخمة » على نحو ما يريدون ، دون الوقوف عند هذا الحد ، وكان من الضرورى حثهم على الاعتدال ، ويعهد إلى المحتسب بمهمة مراقبة المدارس والأمكنة الأخرى التى يجرى فيها التعليم ، حتى لا يسرف المدرسون أو يشتدوا فى عقاب التلاميذ[4] .

ورغم أنه لم تكن هناك مدارس رسمية ، وأن على الأفراد أنفسهم أن يدفعوا شخصيا نفقات تعليم أبنائهم منذ التعليم الابتدائى فإن هذا التعليم بلغ درجة كبيرة من الإنتشار ، حتى أن معظم الإسبان المسلمين كانوا يعرفون القراءة والكتابة[5] ، وهو شيء لم تعرفه أىّ من بقية دول أوربا فى ذلك العصر .

---

(١) انظر الوثائق الملحقة بهذه الدراسة .

(٢) دوزى ، ملحق المعاجم العربية ، مادة « فلقة » .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، جـ ١ ص ٢٦٧ (طبعة القاهرة ص ٥٤٠) .

(٤) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٤٥٩ .

(٥) دوزى ، تاريخ مسلمى إسبانيا ، جـ ٣ ص ١٠٩ .

ويمكن أن نصف التعليم فى تلك الأيام بصفتين جد محببتين إلى المحدثين ، وهو أنه مجانى وإجبارى ، ونفهم من مجانى أن ذلك كان بالنسبة لمن لا يملكون نفقاته وإجبارى أن الرأى العام فرضه ، وليس عملا قامت به السلطة ، فبعض أصحاب الأعمال كانوا يرفضون أن يقبلوا فى مصانعهم صبيانًا لا يعرفون القراءة والكتابة ، حتى ولو كانت مهمتهم لا تتطلبها[1] .

(١) معجم ابن الآبار ، الترجمة رقم ١٤ ، طبعة كوديرة .